باحثة البادية

(٦)

الناقدة

أليس النقدُ من تلكم الملكات الفطرية المتسلطة أدوارها في الطفل وفي الرجل على نمطٍ واحد؟ فتكون في دورها الاول نظراً بسيطاً يعقبهُ انتباهٌ سلبيٌ او ايجابيٌ ، أي الانتباه لوجود شيء أو لعدم وجوده ، ثم يجيء دور المقابلة بين ما هو كائنٌ وما يجب ان يكون . حتى اذا اكتمل فعل التمييز والمقابلة ، وحكَم الذوق بافضلية أحد الوجهين وأنقصية الآخر، كان ذلك الحكم ما نسميه نقداً

كان الجمهور بالامس يتخيل وجود نصوص ثابتة مترفعة عن التحوير هي سلاح الناقد ، فرداً كان أو اقليةً قادرةً . فاذا اتيت الناقدُ أو نفى احتضنت رأيهُ الاكثرية بلا تمحيص ولا ارتياب في أنها مائلةٌ امام الحقيقة بعينها. ويا لهول روعة تجمد المفكر إزاء ما قاساهُ الانامُ من جراء هذا الاعتقاد الفاسد والاستسلام الذليل ، في ماضٍ ما اكثر ما أورث الحاضر من الحفائظ والضغائن ! أما الآن فالرأي العام ، كالرأي الخاص ، لا ينقادُ الاَّ الى من شاء الانقياد اليهم ، حافظاً لنفسهِ حريةَ النقض والتأييد والمناقشة . والحقيقة ان عصرنا عصر انتقاد بلا نقادة ، لان النقد أصبح جزءاً مدركاً من شخصية كل فرد ، وانحصارهُ في أفرادٍ دون غيرهم ينافي الروح النقدية وينافي الواقع ، اذ اي الناس لا يحبُ اشياء ويكرهُ اشياء ؟

على أن للنقد شرطين اثنين لا بدَّ منهما ليكون صائباً مفيداً :

الشرط الاول ان يكون قوةً فطرية مكتملة لا جزئية . والشرط الثاني ان يكون الاطلاع والملاحظة والاختبار قد أوسعتهُ تهذيباً وتصفيةً . والشرطان لازمان متماسكان الاَّ ان الملكة الفطرية اكثر ضرورةً لان وجودها يقبل المزيد والاتساع . وان لم توجد جميع المطالعات والاسفار والاختبارات تعمل في محق القليل الذي أفلت من اصابع الطبيعة وهي تقذفُ الى الحياة بمن لم تشأ ان تجعلهُ من اهل الذوق

لو تبينا عن الباحثة كلّ صفة كتابية وجرّدناها من جميع نعوت الانشاء لظلّت ناقدةً في كل كلة خطّها يراعها. كانت ناقدة بفطرتها التي تفهم الدرس والالم والاختبار والاطلاع على مناطق البيئة المصرية مما لم يكن ميسوراً لسواها. لانها بمركزها الاجتماعي كانت ذات صلة بجميع الطبقات. فبينا هي بوجاهة أبيها وزوجها من عشيرات الطبقة العليا اذا بها صديقة الطبقة الوسطى برفيقاتها في المدرسة وبتعاطيها التعليم قبل زواجها. ولما كانت تذهب الى قصر الباسل في النيوم كانت تجتمع بنسوة البادية وانفلاّحات المحسوبات، مما يأتينهُ من اعمال الزراعة واللقاط والخدمة المنزلية، إحدى امتعة الرجل وجزءاً من ثروته. فتحادث تلك النفوس الخشنة بجهلها وتربيتها وعاداتها، الرقيقة بأنوثيتها واحساسها واوجاعها، وتقابل في سرها بينهنّ وبين الاخريات ذوات الدلال واليسار، فتجد ان المرأة ان تغيرت منها الاثواب والاشارات فان وجوه الشقاء في حياتها متشابهة، ومواضع الخلل واحدة في جميع الطبقات. فادركت وجوب الانتقاد والمعالجة ابتداء باكثر الاعضاء سقماً ومبعث الصحة والمرض في جسم العمران. يجب ان يبتدأ بتعليم المرأة لانها الاكثر جهلاً. يجب اصلاحها السريع ليتيسّر اصلاح الرجل. يجب ان يباشر بتحرير المرأة كيلا يكون المتعنتون بلبنها عبيداً. يجب ان يحسر غشاء الخزعبلات والاوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما، من زوج وأخ وولد، ان معنى الحياة عظيم. هي المظلومة المنحنية امام الرجل العسوف، هي المهضومة الحقوق الساكتة على مضض الهوان. وترى اي الم او شيطان أباح الجور عليها من بدء ايامها الى منتهاها؟ منذ بدء ايامها؟ كلا! بل قبل ذلك. وهاك حجة الباحثة:

« المرأة المصرية مسلوبة الحق ومظلومة في كل ادوار حياتها. تراها يتشاءم منها حتى وهي جنين فاذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة. ترى الثابة تحملها وهي منكمشة لا تبدي ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها انثى. ترى اقارب النساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا اذا كان مولودهم ذكراً ويقللون منها عدداً وقيمةً اذا اتت بنتي. ترى كل من نقل الخبر يطفح الياس من عينيه ولسان حاله يقول فاق الكفر ليس بكافر. فاذا انقضت ستة ايام كان سابع ايام النفي عيداً توقد فيه الشموع نهاراً وتجلب انواع الحلوى وتعزف آلات الطرب. اما النفية فيكتفى لها ببعض النقل ويحسب تفضيلاً (١):

(١) النسائيات

حق انتقاد تفضيل الصبي على البنية ليس عندنا نحن الشرقيين فحسب ، بل عند اهل المغرب كذلك ، لاسيما في هذه الايام بعد ان فقدوا في الحرب ملايين الرجال فصاروا يطلبون الابناء ليسدوا ما ثلم من صفوفهم وخوفاً على البلاد من حروب مقبلات . غير ان هذا شيء موقوت ، وتشاؤم الناس من الفتاة قديم ، فما هي أسبابهُ ؟ يقولون بافضلية الصبي لانهُ يحفظ اسم العائلة . لستُ لأناقش ما اذا كان في وسعهِ الاحتفاظ بذياك الاسم بدون معاونة المرأة . ولستُ لألفت نظر أحد الى أن هذه مسألة اصطلاحية صرفة والى انها كانت موكولة الى المرأة ايام كان قانون الامومة (Matriarcat) نافذاً عند بعض الشعوب القديمة (وما زال نافذاً في بعض الجهات من افريقيا الجنوبية) ، والى ان صاحبات العروش ما زلن يتمشين عليهِ ، اذ ان الانثى التي ترثُ صولجان ابيها تناول أولادها اسم عائلتها دون اسم ابيهم

المهم ان اسباب التفضيل عند الاهل كثير . منها ان الفتاة تأخذُ نصيبها من ثروة اسرتها وتعطيها لرجل غريب ، بعكس الفتى الذي يزيد ثروة أبويهِ بزواجهِ وبارباحهِ جميعاً . اما المقامرة ، والسباحات ، والمضاربة وجميع اساليب التبذير التي يبتكرها الولد ليلتهم ثروة الوالد الكثيب فلا حساب لها ولا بأس بها ، أليس انهُ رجل ؟ لقد امتدت يد النساء الآن الى كثير من أنواع العمل مدفوعةً بالحاجة ووجوب إعالة من لا معين لهم وضرورة اشغال الايام بفكرة جدية ، ومنهن من أثرين كاطائم الماليين وكان نجاحهن حسن العائدة على ذويهن . ولكن ما العمل ؟ إنهن نساء ! وربما كان سببُ التفضيل الاكبر من تلك الاسباب الغامضة التي تذوب حيالها منطورات المنطق الثابت . كل اعمال الرجل حسنات ما دام « رجلاً » وكل الذنوب جائزة تغفر لهُ « لانهُ رجل » !

***

ومقابل ذلك كل شيء يحسبُ على المرأة . تتدرجُ الناقدة في سرد حياة هذه المخلوقة المسكينة فترى نصيبها من العلم قليلاً وريء الطيبات عليها حراماً لانها « بنت » لا تصلح لغير أعمال المنزل . هذا في الصغر . أما في الشباب « فيحجر علينا حتى في استنشاق الهواء النقي حتى في اختيار لون الثوب الذي نلبسهُ » (١)

(١) انتقائيات

ان عدم حرية الفتاة في اختيار الثوب الذي تلبسهُ لا يرجع الى ازدراء الابوين بها بل الى نقص في تربيتها الاصلية وعدم ادراكهما وجوب تربية الصغار على الاستقلال في الاختيار والاعتماد على النفس . الشرقيون — كبعض الشعوب اللاتينية — متأخرون جداً في هذه الطريق التي قطعت منها الشعوب الانجلوسكسونية شوطاً بعيداً . انَّ هذه تنقف الاولاد على التمييز والاختيار فيشبُّون احراراً يعرفون ماذا يريدون ولاي سبب يريدونهُ. فكم من ام انجليزية وامريكية رأيتُها مع طفلٍ لها او طفلة تبتاعُ لها في المخازن أثواباً او ادوات مدرسية او لعباً يتلهيان بها ، وتخيرها في الانتخاب ضمن ما شاءت هي من حدود اقتصادية . وما أبهج مرأى الصغير ناظراً الى تلك الحوائج يقابل بينها مناقشاً نفسهُ حتى اذا قرَّ رأيهُ على احدها سألتهُ امهُ سبب اختيارها وأبانت لهُ منها العيوب والحسنات بالفاظ مختصرة وحجة مفحمة وتأدب تام كأنما هي لا تحادث طفلاً هو ابنها ، بل تحادث رجلاً غريباً عنها

وما أجل دوائر التيقظ تتسع قليلاً قليلاً في عيني الصغير ! وما أعظم الفرق بين هذه الام الرشيدة والام الشرقية الغطة التي رأيتها البارحة تشدُّ بذراع صغيرها قائلةً بصوت اجشَّ وعبوسة قبيحة : « امش يا ابن الكلب ! » سيكبر هذا الولد واثقاً من ان اباهُ كلب ، وامهُ امرأة كلب ، يعني كلبة ، وان وسطهُ جحيمٌ اسود لا مشعَّ فيهِ لغير الضنى والحن ! كيف تستلمُ تلك اليد الخشنة نفس الطفل الطريئة البريئة ، واذا عاملتهُ على هذه الصورة حين لا ذنب لهُ سوى ان ذكاءهُ المتنبه ونفسهُ الطلعة وقعتهُ تستعرضُ بضائع نشرت في نوافذ الحانوت ، طالبة التفهم والمعرفة ، فاذا تفعلُ بهِ ساعة يجني إثماً ساهياً أو متعمداً ؟ وهل يستطيعُ هذا ان يحبَّ امهُ ويحترمها كما يحبُّ ذلك الغربيُّ الصغير أمهُ الصالحة ويحترمها ؟ كثيراً ما ينسى الابوان ان الاحترام يولِّد الاحترام والحبَّ يستدعي الحب ، وان معاملة أبنائهم لها نتيجة لازمة لتصرفها معهم. فكما أن لها شخصية مستقلة ، وارادة ترغب في الخبرة ، وميولاً تريدُ ان تنمو وتصلح كذلك ، بل اكثر من ذلك ، للابناء لمنتبهين رويداً رويداً ليقظة الحياة المنبسطة امامهم بهولها وجلالها . واي يدٍ تحسن قيادتهم بين أدغال الحوادث بحكمة وانصاف وحنان أكثر من تلك التي عيَّنتها الطبيعة لتضمهم وتداعبهم وتهذبهم وتؤاسيهم ؟

وهكذا تتبع الباحثة الفتاة خطوة خطوة في دور التربية فترى في الام الجاهلة اكبر عثرة في سبيل النجاح وان البيت يفتأ منسداً من البنت ما تصلحهُ المدرسة حتى اذا وصلت الى عمر معين « ذكرت الام لزوجها ، والفتاة تسمع ، ان البنت قد كبرت وانهُ يجب ان تترك الدرس والمدرسة لتتزوّج ، وان فلاناً وفلاناً ارسل والدتهُ واختهُ تخطبها » (١) . فاذا كانت الفتاة ذات عقل وشعور صغرت نفسها واغتاظت لجرأة الرجل الذي يهاجم حياتها الهادئة بمجرد استنسابهِ الزواج منها . غير أنَّ السواد الاعظم يلتفتن لامر الزواج وما فيهِ من لامع جديد فيهملن المدرسة والتعليم وتنتهي امكانية التهذيب الاخلاقي وهو قوام العائلة !

غريب جدًّا اننا نتعلم جميع الفنون والاعمال قبل ممارستها الاَّ فن تهذيب النفوس الصغيرة ! الفتاة التي ترعرعت على جهل وغرور في منزل هذه حالهُ ، تحت مراقبة أم هذه درجة ادراكها اذا صارت ربة بيت واستلمت نفوس الاطفال فكيف تتكفل بحلّ مشكلة اسعادهم واعدادهم لحياة ينفعون فيها الغير وينتفعون؟ لا ريب في ان هذا هو الاساس الاول لشقاء العائلة ، أساس يقوم عليهِ سوء التفاهم والمشاجرة المؤدية الى النفور المحزن بين أعضاء الاسرة الواحدة

***

هنا تلمس الباحثة القفل وتفتح باب العائلة على مصراعيهِ لتجيل بنظرها في كلّ ما يختفي وراءهُ . فتبصر الفتاة في ذلك الدور الذي يسبق الخطبة . الخاطب والاهل يبحثون ذاك همّاً يرغب فيهِ من ثروة وهؤلاء همّا ينشدون من جاه . والفتاة بين هؤلاء الاثنين المستبدين كالعوبة لا صوت لها في الجماعة . يجب ان لا ننسى ان فريقاً كبيراً من البنات لا يهمهنَّ من الزواج الاَّ بهرجة الفرح والطمع بالاستقلال في منزل تصبح سيدتهُ وتتصرّف في تنسيقهِ وادارتهِ كيفما شاءت سعيدةً بان لها « مملكة صغيرة » تنفذ فيها ارادتها . ربما كانت فكرةُ هذه الحرية المتراضمة من اهم المرغبات في الزواج . وقد يكون في هذا الفريق زوجات مخلصات وامهات صالحات . الاَّ ان شحّ السعادة وتزايد الانشقاق في العائلات ينبئان بان غير المسرورات من زواجهن كثيرات ومعظمهنَّ عائد شقائهن الى عبث

(١) الفتيات

الاهل برغائبهن ، وحملهن على قبول من رضين به زوجاً بالترغيب او بالتوسل او بالارغام الصريح . وليس هذا التحكم من خصائص الشرق وحده بل سمعت من اجانب واجنبيات مختلفي الجنسيات ان هذه حالهم في بلادهم . وقد يكون هنا كذلك العنصر الانجلو سكسوني اكثر احتراماً برضى الاولاد من غيره

لما كنت ادرس الانجليزية اخذت يوماً احادث واستاذي بهذه المسئلة الحيوية فأخبرني انهُ لما خطب كانت الفتاة التي انتقاها ضئيلة في عيني امها لانها ليست « ذكية ولا جميلة ولا متعلمة ولا غنية » فقالت لهُ « لك ان تبحث عن فتاة حائزة لصفات اجتماعية اكثر من هذه » أجاب : « صحيح صفتها الوحيدة انها فتاة محبة وهذا يكفيني . استطيع ان ابحث عمن تفضلها في نظر الغير ولكنها تحبني وانا احبها ولا اريد غير ذلك » . فبعد ان قامت تلك الام بواجبها نحو ضميرها ومثالها الشخصية قامت بواجبها نحو ولدها فاحترمت عواطفهُ واذعنت

اني بكلامي عن العائلة عندنا واستبداد الاهل لا اعني الجميع على الاطلاق . بل اعني الاكثرية . لان النفوس النيرة الكبيرة موجودة في كل مكان لا تقيدها الحدود الجغرافية ولا يسطو عليها مناخ الاقليم . حدثني واحد من اعاظم المصريين انهُ بعد ان اختطب ابنتهُ احد ابناء العائلات الوجيهة رأت الفتاة خطيبها وهو داخل فلم يعجبها مع انهُ كان جميل الطلعة حسن الهندام ، وحملت أباها على استرجاع وعده . وبعد مدة وجيزة جاء خاطب آخر عائل ذاك مقاماً ويقل عنهُ جمالاً ، فارادت ان تراهُ قبل البت في الامر فاعجبها لان « دمهُ خفيف » وتزوجت منهُ . وهو من اشهر رجال مصر في هذه الايام

وقد تكلمت الباحثة عن الزواج خصوصاً في فصل جعلت عنوانهُ « يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن ! » ملقية الخطأ على الرجل وعلى المرأة ولاسيما على طريقة الزواج نفسها . وحصرت شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما في الاسباب الآتية :

« (١) جهل احد الزوجين بالآخر
(٢) زواج مختلفي الطباع كعالم وجاهلة وبالعكس او غني وفقيرة ومختلفي الدين والبلد
(٣) للطمع في الغنى بغير نظر الى الاخلاق
(٤) الزواج التسري
(٥) تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه في احكام الزواج والطلاق

وهذه الاسباب كلها شعب لاصل واحد وهو عدم الحكمة . فاذا روعيت شروط الحكمة قلّ ان نرى هذا الشتاء الخيم على البيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية . وخير لفتاة واثقة ان يعيشا أعزبين من ان يتزوجا بثالث هو البؤس والعذاب (١) »

ثم اخذت بتفنيد صنوف شقائهما فعددت عيوب المرأة الجاهلة كعدم الثقة بالزوج وتصديق وشايات صويحباتها وجاراتها به، والغيرة الشديدة على حاضره وماضيه جميعاً ، والتحزب لاقاربها وافادتهم من مال زوجها ما استطاعت في حين انها تبغض اهلهُ وتسيء معاملتهم ، والاثرة والمباراة ، والاسراف ، والبطالة ، والاهتمام بالزينة والزيارات ، واهمال الاولاد لتخدم والمربيات ، وتقليد الاجانب في اللباس والحركات بلا تروٍّ ، والثرثرة والتداخل بامور الرجل . اي شيء لم تذكره ؟ اي شيء لم تنتقده ؟ انها لم يفتها حتى ولا التدخين ، ولا الضحك ، ولا العبوسة . انتقدت كل ما استطاعت انتقاده في تلك الصفحات القلائل ثم وقفت طويلاً عند سرعة غضب المرأة وتهديدها بالفراق فقالت :

« كل شريكين قد يختلفان لخلافات بسيطة ولكنهما لا يذيعانها ومن اجل بكتمان السر من شريكي الحياة اعني الزوجين . والحازم من لا يجعل للاختلاف الحقير محلاً من اهتمامه بل يزيله بمجرد الفراغ من الكلام فيه » . « بقيت لي كلمة عن هؤلاء اللاتي يغضبن ليقبضن ما يبقى لهن من الصداق عند ازواجهن وهي عادة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات . اما نصيحتي لهن لان المرأة بذلك تبرهن على انها تقدر النقود اكثر من الحياة والسعادة وهذا جشع لا يليق الا بالمرابين ومهووسي المال والمرأة يجب ان تكون ملك اللطف ومثال الرقة والنزاهة . وبعضهن يتدرعن بالغضب والاحتماء بالاهل ليصالحن الزوج والعادة ان يصالح الرجل زوجه بقطعة حلي وثياب كثيرة فما اسخف هذه العقول . تفدي المرأة راحتها وهناءها وسعادة اولادها بذلك المتاع الفاني » . « المنزل لا بهاء له الا بالمرأة كما ان تراميه الرجل وترك المرأة بيتها يسخ فلك الماء المترقرف عليه ويسبب حزن الاولاد وانقباضهم كما انه يتلف وتعبث به ايدي الخدم فيخسر الرجل خسارة متتابعة » (٢)

وبعد فراغها من وخز المرأة التفتت الى « الآخر » ، الى الرجل وانضدت منهُ المساوىء المرعبة جاعلةً الطمع في رأس القائمة ، ثم الاستبداد يمال المرأة بعد الحصول عليه فقالت :

« بعض النساء يهددن بالفراق اذا لم يعطين ازواجهن ما يطلبون ويذكرن ان الزواج ارهن . فاي الامرين يختار الرجل انانية ؟ » . « المرأة مظلومة دائماً . اذا كانت فقيرة لا يرغب فيها وان كانت وارثة يطمع في مالها . والوارثة مظلومة ايضاً فما ان لا تتزوج لتأمن الطامع والطامعين وما ان تتزوج حتى تصير كعادتنا » (٣)

(١) و٢ و٣ « النسائيات »

ما أكثر مساوىء هذا « الآخر » المخيف عدًّا ! وليس الظلم اقلها ، تتبعهُ الانانية وعدم مؤاساة المرأة في حزنها ، والزواج من غيرها ، والازدراء بها ، والتكبر عليها والضغط على جميع انواع حريتها ، وكتم اسرارهِ عنها كأنها هي شيء لاقدر لهُ ولا قيمة ... عديدة ، عديدة ، مديدة ذنوبك ، يا اسرائيل ! واما ما تفتتح منهُ الباحثة بوجهٍ خاص فهو عدم امتزاجهِ بذويهِ وافادتهم من معرفتهِ وعلمهِ ، فهي تحتمل الجهل من زوجة الغبي الصريح ولكنها يحزنها جهلُ امرأة العالم وابنتهِ واختهِ . وتنسب ذلك الى الخشونة التي يضيع بها الرجل تأثيرهُ الحسن في اسرتهِ . قالت في ذلك :

« احب الاب يتكبر على اهله واولاده فيظهر لهم مظهر الجبار العنيف ويظن ان ذلك استجلاب لهيبة وهو لا يعلم ما يشعرون » . « وهذا التعبير من جانب الاب يضعف الاخلاق في الطفل ويفسدها اذ يزيي فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر » (١)

***

كانت من انصار السفور مبدئيًا ، ومن رأيها ان كل ما تحتاج اليهِ المرأة ولا تجدهُ بين النساء كالطبيب البارع والاستاذ الماهر الخ ، يجوز ان تستعين بهِ الرجل ، وجاهرت بانها لو كانت واثقةً من كمال المرأة وتهذيب الرجل لما ترددت في اباحة السفور للجميع — كما انها تبيحهُ للراقية من النساء . وقد أبدت فكرها في ردها على خطبة ألقاها زعيم السفوريين عبد الحميد افندي حمدي في نادي حزب الامة . قالت :

« نساء مصر متعودات الحجاب الآن فلو امرتهن مرةً واحدة بخلعه وتركِ البرقع لرأيت ما يجلبه على انفسهن من الخزي وما يقمن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائي من اسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين (لا افهم كيف يكون السفور او اي شيء آخر شراً على « الدين » — ي) . واذا اردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً الى ان يتم الهدم فتبني على انقاضه احسن منه ؟ » . « ثم افدني ايها القاريء بالله ماذا تقول امرأة جاهلة او متعلمة تعليماً ناقصاً لشاب تجتمع به اتباعاً في الطريق وهي لا تدرك اهميته او تعلم منها قشوراً لا يعتد بها . ام تناقشه في السياسة وهي لا تعلم اين انجلترا من جزائر الارخبيل ولا يمكنها ان تفسر لفظة دستور او استعمار مثلاً . ام ماذا تفعل الهم انها لا تجد شيئاً تقوله له الا ما قد تستحسنه من هيئة وحسن زيه وهناك الضلال الكبير . رأيي ان الوقت ليأذن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربيةً صحيحة وهذبوا النشء واصلحوا اخلاقكم بحيث يصير مجموع الامة مهذباً ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الامة » (٢)

(١) و(٢) « النسائيات »

من الناس من لا ينتقدُ الاَّ مرارة و بقصد الايذاء والايلام والانتقاص من قيمة المنتقد عليهِ . أمَّا كاتبتنا فتنتقدُ بسردها الحكاية كمن يصف لك حالاً من الاحوال دون تعمد الانتقاد ، والمرارةُ تنقلبُ تحت قلمها ظرفاً فتبتسم حيناً — وتبكي أحياناً. وتخال قطرات الدم سائلات من يراعها ساعة تذكر شيئاً يوجعها في أعزّ عواطفها ويلمس من نفسها ارق الاوتار حسًّا ، كموضوع تعدّد الزوجات مثلاً الذي ترى فيهِ الظلم البحت والاستبداد الاقصى ولا تبررهُ الاَّ اذا تعذَّر عيش الرجل هنيئاً مع زوجتهِ الاولى . هاك صورة الضرتين :

« ارى « القديمة » حزينة « والجديدة » كذلك . فاذا قلت للاولى ماذا يحزنك أجابت يحزنني ذلي وانكسار قلبي وانا مني ما ترين لست انقص من الجديدة جمالاً ولا ادباً وكنت ابذل جهدي في مرضاة زوجي اما الآن فلا . على انه لا يزال يسترضيني فيقول لي انت احب الي من الاخرى وانت اول من ملك قلبي وانت جميلة وانت وانت الخ. وانا لم اتزوج عليك لنقص فيك واما كان ذلك مقدوراً. واذا ما سألت الجديدة عن سبب انقباضها قالت يحزنني ان أرى لي شريكة ومنافسة على ان زوجي يحق لي انه لا يبأ بها وانه لو كان مقتنعاً بها لما تزوج عليها وانه يريد طلاقها ولكنه يبقيها رحمة منه بابي اولاده فقط » . « تزوج الثنتين غير سعيد كما قد يخيل له » . الاكثار من الزواج داء اذا تأصل صعب استئصاله » (١)

في الضرّ ترى جميع أنواع المتاعب للرجل ، واكبر اسباب الغم والتعاسة للمرأة ، فهو عندها مفرق العائلة واظلم مشتت لسلامها. قالت « هو اسم فظيع تكاد انامله تقف بالقلم عند كتابته » « هو اسم فظيع مملوء وحشية وانانية » . اذا شقي الرجل مع زوجتهِ الاولى لهُ ان يتزوج عليها. في هذا الظرف تسمحُ بالضرّ وتحرمهُ في ما عداهُ . « اما اذا كان يعدد بقاءها (القديمة) معهُ منتفعاً لحياتهِ أو كان كارهاً لها فليطلقها بتاتاً فربما يجد مع غيرها راحة وتجد هي كذلك مع غيره » . « الطلاق شقاء وحرية والضر شقاء وتقييد . ألا انَّ حزيناً حرًّا خير من حزين أسير ! »

***

اكتب هذا الفصل وفي عاطفتان قويتان: عاطفة الحزن وعاطفة العجز. فالعجز يجعلني قاصرةً دون تشخيص هذه العلل الغريبة التي لا في فتاة مسيحية ترى الضر شيئاً وهميًّا لا وجود لهُ في قومي وقد أُلغيت بغيابهِ جميع صنوف الرزايا اللاحقة

(١) « النسائيات »

به . ومهما تفهمت هذه الاوجاع بقلبي النسائي فانها تظل عندي خيالية ليس غير . أما عاطفة الحزن فتأتية من ان العائلة التي وجدت لتكون مستودع السعادة الظاهرة تصير على قولها مستنقع الحسرات والكوارث والتنوط . وهل يجدي اصلاح المصلحين نفعاً إزاء ناموس الالم النافذ على جميع الكائنات ؟ لماذا يعذب الاب ابنهُ والولد امهُ ، والغريب الغريب والحبيب الحبيب ؟ من اين تهجم جيوش الالم الدقيقة غير المنظورة معادمة اشرف الميول ، جارحة أصفى النوايا ، ساحقة أخلص القلوب ؟ ما هذا ما نسميهِ ألماً وما هي الغاية منهُ ؟ اذا كان كما يدعي الروحانيون نتيجة ذنوب سابقات واننا نكفر اليوم عن آثام الامس وسنكفر في عمر آت عن آثام هذا العمر ، اذا كان ذلك صحيحاً فقد كان يوم بدء أعمار الانسان ، فيهِ تألم هذا مظلوماً لانهُ تألم بريئاً . واذا سلمنا بالمعنى الشريف الذي جعلهُ الروحانيون للالم فقالوا انهُ النار المطهرة من الفساد والواسطة المثلى للتهذيب والارتقاء ، فماذا نفكر ازاء من يتألمون ولا يستفيدون بل يتقهقرون مجدفين على قوى الطبيعة والالوهية ؟ بل ماذا نقول فيما يقاسيهِ الحيوان من آلام جسمية دون ان ينتفع بهِ ؟ ان الذي تروعهُ معاني الالم يتقطع قلبهِ ازاء أوجاع صغار الحيوان ، فيرى الالم كما هو شيئاً هائلاً وحكماً صارماً تخضع لهُ الموجودات مرغمة مقهورة وتخترعُ لهُ البشرية مخففات المعاني لتؤاسي يأسها وتنقص من بلواها . يخاف الناس ويرجون ، ويكرهون ويرغبون وظلام الالم مخيم عليهم ابداً ، فيبحثون عن الاصدقاء والمساعدين والمؤيدين والمحبين ليأمنوا شر ذلك السواد القاسي . ولكن ، ولكن ! أليس هؤلاء الذين نحبهم ونحتمي في قلوبهم من مكايد الايام هم الذين يسكبون سيال الالم في كؤوسنا صرفاً ويتفننون في التعذيب كأنما الطبيعة ائتمنتهم على أسرارها ؟

ما هو الالم ؟ من اين يأتي وما هي الغاية منهُ ؟ هل يتغلب عليهِ المصلحون يوماً فتعيش العائلة الجزئية بسلام وتترابط العائلة البشرية الكبرى برباط الامان ؟ أم سنظل ابداً على ما نحن فيهِ كأنما البارئ جلّ وعلا ينشيء وراء سماواتهِ عالماً جديداً لا يتغذى الاّ بعنصر الألم المتجدد مع الثواني في حياة ابناء الارض ؟

(مي)